## إلــى دمّــون

كانت الســحب السوداء تغطى وجه السماء وهى تسير ثقيلة فى بــطء، وتنوء كأنها تريد أن تهبط إلى الأرض. ووقف فتيانٌ ينزلون أحمالا عــن ظهور جيادهــم ويلقونها فــوق الأرض الحجرية على جانب الوادى، ولما فرغوا ذهبوا يمسحون أيديهم بأعراف خيولهم البيضــاء حتــى صبغوها بلون أحمر قانٍ من الدمــاء. وما كان هؤلاء الفتيــة غير امرئ القيس فى جماعة من أصحابه، عادوا من الصيد، فنزلوا حيث انتهى بهم الســير؛ وما كانت تلك الأحمال إلا وعولا وظبــاءً، قضى هؤلاء الفتيان يومهم فــى صيدها، وحملوها إلى ذلك الوادى الذى اختاروه منزلًا لهم، ليقضوا به أيامًا فى قصف ومرح، وشــراب وطعام، حتى ينفد ما اجتمع عندهم من الصيد، ثم يسيروا ليلتمســوا لهم رزقًا جديدًا من صيد آخــر؛ فهكذا كان امرؤ القيس وأصحابه يقضون أيامهم لا يستقرون فى دار، ولا يقيمون فى أرض.

وأقبل امرؤ القيس بعد أن انتهى من مسح يديه فى عرف فرسه، فجعل يمسح وجه الجواد برفق، ويمر بيده على ظهره وكفله، كأنه يداعبه، وكان الفرس يهز رأســه مرتاحًا، ويشم وجه صاحبه كأنه يجيبه على مداعبته.

ثم سـار الهوينى ينظر حوله، ويملأ صـدره من الهواء البليل، ويتغنى لنفسـه بأبيـات يصف فيهـا لذته التى كان يحسـها فى حياتـه الطلقة، ويردد ارتياحه إلى كل مـا كان يقع عليه بصره من آيـات الجمال، وما كان في نفسـه من النشـوة القوية التى تجرى فى دمائه. ثم جعل يتغنى بمحاسـن فرسـه المحبـوب، وما أبلاه في يومه من سـرعة العدو والذكاء، ويصـف دقة أعضائه، وجمال خلقتـه، ولم ينس أن يصف شَـعر عُرفه الذى مسـح فيه يديه مما علق بهما من دماء الصيد، حتى صار كالشيب المخضوب تسيل عليه عصارة الحناء.

ثم أخذ المطر يتسـاقط ويتزايد، فأسـرع الفتيان إلى ظل الصخور يلجـأ كل منهم إلى طرف منها ليحتمى به من المطر. وأسـرع امرؤ القيـس عائدًا إليهم فجلس فى ظل صخرة بارزة فى جانب الوادى. واستمروا على ذلك ساعة ينظرون إلى المطر الهاطل، وقد ارتسم على محياهـم ظل من خيبة الأمـل. فقد كانوا يطمعون فـى ليلة مرحة يقضونها في الشراب، ويشبعون فيها من صيد اليوم بعد أيام قضوها في شـبه صوم عن الطعام، لا يأكلون إلا ممـا كان عندهم من اللحم المقدد الباقي من صيد الأسبوع المنصرم.

ثـم تحرك فتى منهم وقال ضاحكًا: «لعلنـا نطوى الليلة جياعًا كما طوينا البارحة».

فأجابه آخر: «دونك الصيد فكل منه كما تأكل السباع».

فصاح ثالث: «أليست لك أنياب حادة؟».

وعند ذلك قال امرؤ القيس ضاحكًا: «أما أنا فلا يحزننى إلا فوت الشراب والسمر ونحن هكذا متفرقون».

فصاح فتى يجيبه ضاحكًا: «يحمل كل منا زقًّا يشرب منه فى مكانه ونتسامر صائحين».

فنهض امرؤ القيس وخرج من مكانه وكان المطر قد خف قليلا، وارتفع السحاب عن أطراف الأفق، وأخذ ينفرج من ناحية الشمال، وبدت قطع زرقاء من السماء من خلاله، ونهض الفتيان خارجين من مكانهم وجعلوا يتلفتون حولهم فى شيء من القلق.

قال امرؤ القيس: «وما لنا لا نقيم لأنفسنا بيتًا نجتمع فيه حول سفرة واحدة ونشترك في سمرنا وشرابنا؟».

فقال أحد أصحابه مازحًا: «هلم أيها الأمير فمر عبيدك أن يضربوا لك القبة الحمراء».

فأجاب امرؤ القيس قائلًا: «إذا لم تكن لنا قبة حمراء كانت لنا أخرى بيضاء».

وخلع ثوبًا أبيض كان على كتفيه ودفعه إلى صاحبه قائلًا: «وإذا لم يكن لنا عبيد قمنا نحن بالخدمة. هلم أيها الرفاق».

ولم ينتظر من أحد جوابًا، بل ذهب إلى فضاء واسع فى جانب الوادى وهو يحمل فى يده بعض الرماح، وجعل يركزها فى الأرض

ويضـع الرمـال حـول مراكزها. فذهـب الفتيان إليـه وقد أدركوا ما يقصـد، فجعل كل منهم يتجه إلى ناحية فيسـاعد فى عمل حتى ركـزوا كل رماحهم وطرحـوا فوقهـا ثيابهم الصوفيـة، وأخذوا يشدونها إلى أطراف الرماح بحبال من ليف النخل وأصواف الإبل.

فلمـا اطمأنت الثياب فوق الرماح وصارت منها مظلة فسـيحة، نظـر امرؤ القيـس إليها معجبًا وقال فى زهـو: «أرأيتم قبة خيرًا من هذه؟».

فقال صاحب من أصحابه صارخًا: «فلنضرع الآن إلى مناة أن تمنع عنا هبوب الريح حتى لا ينهدم البناء الشـامخ». فقال امرؤ القيس متهكِّمًـا بالآلهة منـاة: «ضع نعلك فى وجه منـاة. لهى أعجز من أن تهدم قبتنا المتينة».

ثـم ذهب إلى المكان الذى ألقى فيـه الفتيان دروعهم وحمل منها ثلاثًا وأخذ يشـد أطراف الحبال فى حلقاتها حتى استقلت، وجعل يهزهـا مرتاحًـا إلى متانتها وقـال مباهيًا: «أرأيتم أوتـادًا أثبت من هذه؟».

فأحـاط الفتيان به معجبين وجعلوا يثنـون عليه ودخلوا تحت المظلـة ينظرون فـى جوانبها فرحين، ثم ذهبـوا يحملون متاعهم ويرتبونـه فى أركانها، حتى هيأوا لأنفسـهم فيها مجالس وثيرة وجلسوا معًا فى حلقة ليستريحوا وقد احتبوا بحمائل سيوفهم.

ثم قاموا بعد حين وأخذوا يجمعون الحشـائش والأعواد الجافة وأوقدوا نارًا، وما هى إلا سـاعات حتى كانت رائحة الشـواء تفوح وتملأ الهواء.

وكانت ليلتهم مرحة قضوها كعادتهم فى طعام وشراب وسمر إلى أن أخذهم النوم قبل الصباح.

قام امرؤ القيس فى ضحوة اليوم التالى، وكانت الأمطار قد غسلت وجـه الأرض فبدت رمالها الصفراء لامعـة نظيفة، واجتمعت من جوانب الرُّبى والتلال مسايل صغيرة هبطت إلى بطن الوادى فجرى منهـا جدول متعرج من ماء رائـق يتلألأ فى قاعة الحصى المختلف الألوان، كأنه عقود من العقائق واليواقيت قد انفرطت من أسلاكها. وكانت السماء صافية زرقاء لا تشوبها سحابة ولا يحجبها ضباب، والهواء يهب رخاء بليلًا منعشًا، والشمس ترسل شعاعًا إلى الأرض الرطبة فتلمع لها كأنها تبتسم لمرآها وطلوعها عليها بعد احتجابها.

سـار امرؤ القيس يجول فى أنحاء الوادى ويتوقل فى جوانبه، ويعتلى ظهـور الرُّبى والكُثبان، وهو تارة يتغنى وتارة يملأ صدره من الهواء، ومرة يقف ناظرًا حوله إلى الأفق البعيد، وأخرى ينحنى إلى الأرض ليلتقط حصاة ملونة يتأملها حينًا ثم يلقى بها إلى الأرض فى غير اكتراث.

وقصد فى تجوالـه إلى رَبوة عالية فى جانب الوادى، فأشـرف منها على فضاء فسـيح به بعض شجيرات قصيرة، تتخللها أبيات

مجتمعة حول خيمة عالية، قد وقف عند بابها فرس قاتم اللون مربوط إلى أحد أطناب الخيمة. ورأى عن بعد قطعًا من الإبل ترعى الحشائش والأشواك فى هينة واطمئنان، فعلم أن ذلك المكان منزل لبعص الشيوخ يحيط به أولاده وأهل بيته، وهمّ أن يهبط إلى الجانب الآخر من الربوة حتى لا يقرب من ذلك الحى الآهل، ولكنه لمح عند باب الخيمة الكبرى فتاة جالسة تمخض اللبن فى قربة معلقة فى أحد الحبال وأحس عند ما رآها فى مظهرها وحركتها شيئًا يسترعى نظره، فجلس حيث هو، وجعل يتأملها ويحاول أن يرى شيئًا من ملامحها، فلم يقدر على ذلك لبعد المسافة بينهما، وأحس ميلا شديدًا إلى الذهاب إليها، فلم يقف ليتدبر ما هو فاعل ولم يسائل نفسه عن مقصده من وراء ذهابه إليها، بل أطاع ميله الجامح ونزل على جانب الربوة ذاهبًا نحو الفتاة كأن قوة خفية تدفعه إليها.

ولما صار فى الفضاء السهل الذى يؤدى إلى الخيام بصرت به الفتاة وحسبت أنه قد يكون مسافرًا فى حاجة إلى معونة من طعام أو شراب، أو أنه قد يكون خائفًا يطلب جوارًا، أو ضالا يطلب هدى، أو راكبًا هلكت راحلته، فجاء يلتمس مطية، فقامت مسرعة إلى داخل الخيمة فنادت فى شيءٍ من الحدة: «يا أبا عنبسة!».

فصاح رجل من الداخل: «لبيّك!».

فقالت مسرعة: «جاءنا طارق فأسرع إليه».

وفيما كان الرجل يلبس ثوبه مسرعًا ليخرج للقاء الضيف، ذهبت المرأة إلى ركن الخيمة فأخذت منه بعض أوعية وجعلت تَصُفُّها وترفع عنها أغطيتها لتنظر ما فيها، ثم تناولت قربة من الماء فصبت منها في وعاء مملوء إلى نصفه بالحليب، ووضعت تمرًا في صحفة واسعة من خوص النخل، وأخذت تعد من ذلك طعامًا سريعًا للضيف ريثما تأمر بعض عبيدها أن ينحر شاة لغذائه.

وأقبل امرؤ القيس حتى قرب من الخيمة فوجد الرجل واقفًا ليلقاه، وفي وجهه بشاشة يمازجها وقار وسكون.

فقال امرؤ القيس محييًا: «عمتَ صباحًا».

فقال الرجل: «عِمْتَ صباحًا! ومرحبًا بك!».

ثم سار به نحو خيمة مجاورة فأجلسه فيها وجلس إلى جواره يحييه.

وأدرك أبو عنبسة من مظهر ضيفه أنه رجل نبيل وأنه من فتيان العرب، وشجعانهم، فقد كان جميل الهيئة حسن الوجه مديد القامة تدل مشيته على أنه يحس شرف مكانته ويعتز بنفسه. فجعل يحدثه في حذر، ولم يحاول أن يسأله عن نفسه ولا عن قصده من زيارته، منتظرًا أن يفضي الحديث بينهما إلى جلاء ذلك عفوًا بغير تعمد.

وما هي إلا مدة يسيرة حتى أقبلت ربة البيت مع خادمة تتعاونان على حمل الطعام، ولما قربت من مجلس الضيف مالت وهي تضع ما في يديها وقالت بغير أن تلتفت: «مرحبًا بضيفنا!».

وكان امـرؤ القيـس ينظـر إلى المـرأة منذ ظهرت لـه، وما كاد بصـره يقع عليها حتى اعتراه اضطراب، وتحـرك فى مكانه يريد القيـام، وأرتج عليه فلم يجد مدخلا إلى الكلام، حتى ألقت تحيتها فلم يجبهـا إلا بصرخة مكتومـة خرجت منه قسـرًا وهو قائم فى ارتباك واضطراب فقال: «فاطمة!».

فنظر أبو عنبسـة إلى ضيفه فى دهشـة ولم يستطع أن يفهم سر اضطرابه وقيامه وتعجب أشـد العجب عند ما سمعه ينادى امرأته باسمهـا! ثم نظر إلى امرأته بعد أن سمعت الضيف يناديها باسمها فرآها تنظر إليه مأخوذة ثم تتراجع إلى الوراء، وقد رفعت يديها إلى صدرها فى ارتياح ظاهـر، وصرخت صرخة أخرى مكتومة قائلة: «امرؤ القيس!».

وكان أبو عنبسـة قد عرف كما عـرف العرب قصة امرئ القيس وحبه لفاطمة وخروج أبيها من منازله في بني أسد خوفًا من العار؛ ولكنه تزوج الفتاة مع ذلك منذ سنوات لما عرف عنها من عفة وكمال وما اشـتهرت به من جمال وعقل، ولما كان لأبيها من شرف وفضل بين شيوخ كندة.

وكانت حياته فى تلك السـنوات حيـاة هنيئة، إذ كانت فاطمة زوجة كاملة لم يجد منها إلا كل ما يحب الزوج أن يجده فى زوجه.

ولكنـه عندما عرف أن ضيفه هو امـرؤ القيس الذى كان يهوى امرأتـه لم يلبث أن ثارت نفسـه ومـلأت الغيرة قلبه وقـام واثبًا

فى غضـب ينظر تـارة إلى الضيـف وتـارة إلى امرأتـه، وقد عقل الاضطراب ألسـنة الثلاثة فوقفـوا مبهوتين ينظر بعضهم إلى بعض فى وجوم وارتباك.

ولم يطل الموقف بل كان موقف لحظة قصيرة، كانت على قصرها مثـل دهر طويل؛ جالت فيها المناظر سـريعة فـى ذهن كل منهم، فاستعرض فيها ذكريات السنوات فى مثل لمح البرق. ولم يقطع ذلك الموقف المرتبك إلا امرؤ القيس فإنه اندفع مسرعًا خارجًا من الخيمة وسـار يعدو كأنه يريد النجـاة من عدو يلاحقه، تـاركًا الزوجين واقفين ينظر أحدهما إلى الآخر فى دهشة وحيرة.

ولم يتكلـم أبو عنبسـة بعد ذلك بلفظ بـل وقف لحظة ينظر فى آثار الضيف الذاهب، فرأى من اضطرابه فى مشـيته وعنف حركته ما جعله ينسـى غيرته وثورته، ثم لانت نفسه فجأة وأحس لذلك الرجل الغريب رحمة وعطفًا، فركب فرسـه وعدا فى أثره مسرعًا؛ أما فاطمة فقد ذهبت إلى خيمتها فما كادت تدخلها حتى مادت بها الأرض وخرَّت مُكبِة على وجهها وغابت عن وعيها.

أدرك أبو عنبسـة امرأ القيس قبل أن يعلـو إلى جانب الوادى، فوقف ونظر نحوه جامدًا فقال له الرجل: «إلى أين يا أبا وهب؟».

فقال امرؤ القيس: «إلى حيث كنت».

فقال أبو عنبسـة: «عزمت عليـك إلا بقيت معنا حتى نؤدى لك ما ينبغى من القرى».

فقال امرؤ القيس ولا يزال جامدًا: «ليس إلى هذا من سبيل».

فعاود الرجل قائلا: «لقد علمت ما كان بينكما. ولست أخشاك على أهلى فأنا مطمئن إلى...».

فلم يصبر امرؤ القيس حتى يتم الرجل قوله بل قاطعه قائلًا فى جفاء: «لقد كان ما كان وانقضى. لا تعد ذكره فلست اليوم ما كنت بالأمس. نعم، كنت أهواها. ولكنى اليوم لا أعرف الحب. لا أعرف شيئًا إلا الخمر واللهو، ولا أحب أن أذكر ماضى أيامى. أنا منفى من أبى وأهلى. وأنا كذلك منفى من نفسى. لقد دفنت الماضى عامدًا، وويل لمن يحفر حفرته وينبشه، اذهب عنى فإنى لا آمن عليك منى... ولا آمن من نفسى على نفسى».

ثم سار فى خطى ثقيلة مترنحة وقصد إلى جانب الوادى فذهب الرجل وراءه وقال متوسلا: «ولكن إلى أين يا أبا وهب؟».

فوقف امرؤ القيس ونظر إليه وقد لان جموده قليلا وقال بصوت ضعيف: «لست أذمك يا زوج فاطمة. قل لى كيف أسميك؟».

فقال الرجل: «أنا أبو عنبسة جابر بن يحيى الثعلبى».

فقال امرؤ القيس فى حزن: «عد غير مذموم يا أبا عنبسة. سأذهب إلى حيث كنت هائمًا فى الأرض. لست أحب أن ترثى لى فإنى لا أتحمل أن يرحمنى أحد».

وصمت لحظة ثم تغير مظهره وبدا عليه كأنه يتحفز للنضال، وقال بصوت غير متردد: «سأذهب إلى منازلى باليمين،

سأذهب إلى جبل دمّون. هناك الخمر وهناك الصيد وهناك صاحباتي: هند، والرباب، وسلمى، وغيرهن كثيرات. لست أعبأ بالأشباح. ما فاطمة إلا شبح خيال. هي خيال لا تراه إلا في الذكرى عند منزل دارس أو طلل بال». ثم جعل يقهقه في ضحكة جوفاء مخيفة.

ووقف عن الكلام لحظة وهو ينظر إلى الرجل في حقد، ثم قال في حدة غاضبة: «اذهب عني لا أبا لك فإني لا آمن نفسي عليك».

ومضى مسرعًا يصعد في الربوة ويغرز قدميه في الرمال وينزعهما في عنف. ووقف أبو عنبسة ينظر في أعقابه حتى انحدر إلى الجانب الآخر من الوادي وغاب عن عينيه، ثم مضى حزينًا عائدًا نحو بيته.

* * *